4- كلبتومانيا المشاعر

إسراء عطية

غرفة تُزين تفاصيلها اللون الأخضر يجلس طبيب في الأربعين من عُمرهِ يبدو عليه الوسامة يضع يديه خلف رأسه، يبدو عليه الإرهاق، أحمرت عيناه من كثرة الأرق يشعر بذلك الألم برأسه يكاد يفجرها، من كثرة ما سمع من مشاكل شرد للحظة في إنهاكه كُل ليلة، قبل أن يقول مُحدثًا نفسه:

- عجبًا ممن يتوجهون إلى كلية الطب يتخصصون بالطب النفسي، تسمعهم يقولون أحب سماع المرضى فأجد لهم الحل.. هه.. في مقابل ذلك عقل قد ضمر من كثرة التفكير والمعاناة، التأثر بمرضاي بكائي معهم وسعادتي بشفائهم، أضع نفسي مكانهم وكأنني أنا المريض وأنا الدواء، كم من مرة تقمصت شخصية مريض وأذيت بها زوجتي، ولكن في النهاية أحب هذا التخصص.

قطع شروده دخول مُساعدته إلى غرفة مكتبه وكأنها جاءت لتسقطه من صخرته إلى ملاقيه عندما قالت:

- دكتور خالد يوجد مريض بالخارج آتى الآن يبدو عليه التوتر ويريد مقابلتك.

زفر خالد بضيق قبل أن يتحدث بنبرة غاضبة:

- يأتي غدا سارة أنا مُرهق بالفعل

تنحنحت قائلة:

- أعلم ولكن هو يحتاج لك، أعلم منه ما به واجعله يأتي بالغد، أشعر أنك ملجأه الآن أستاذ خالد

نظر لها بريبة وكأنه أعطاها مالا لتقول هذا الكلام فهي كل مرة تقول هاتين الجملتين المعتادتين فقال بعقله:

-هنيئًا لمن يريد التخصص في الطب النفسي، بل هنيئًا لمن يريد العمل..

أشار لها بنفاد صبر بأن تجعله يدخل فقالت بابتسامه انتصار:

- أستاذ حازم المغربي تفضل الدكتور منتظر حضرتك.

ولج إلى الغرفة رجل قد غمر الحزن عينيه مهمل الهيئة قصير القامة بدأ في الدخول مصافحًا الطبيب ثم هم بالجلوس، بدأ الطبيب ممارسة هوايته المفضلة فهو يفضل تفحص ملامح مرضاه وملاحظة الإشارات الجسدية الصادرة عن أجسادهم دون إرادتهم فمازال المريض صامتا يهز ساقه وكأنه يسابق فريسته لا يعرف كيف يبدأ الحديث تدور بعقله أسئلة..

- ما الذي جاء بي إلى هنا؟!.. .. هنا يُعالج المجانين، أمجنون أنت؟

نظر إليه الطبيب متفهمًا وكأنه ينصت إلى تلك الأسئلة، فقرر قطع الصمت قائلا:

- تريد أن تشرب شيئا لتهدأ قليلا؟

عدّل المريض من وضع نظارته الطبية ومرر يده على صلعته وكأنه توجس ابيضاض شعره المفقود من شدة الخجل، أعاد الطبيب الحديث بنبرة هادئة محاولا بث الطمأنينة بمريضة قائلا:

-هذه ليست بمصحة وأعتقد أن خوفك هذا ليس له داع، جميعنا مرضى نفسيين وأنا أولهم، ولكن الشجاع فقط من يعترف بمرضه.

بدأت علامات الارتياح بالتسرب إلى ملامح حازم ليقول بارتباك:

-أعلم هذا ولكنني

- ما بك؟.. ثق بالكلام معي وحديثك معي لن يعرفه أحد فلك خصوصيتك فقط عليك الحديث حتى أفهم ما بك.

ترك الطبيب مقعده واستدار حول مكتبه الخشبي ليجلس أمام مريضه بلطف قائلا:

- مجيئك إلى هنا أول طبقات درج العلاج، جلس مكانك الكثير من المرضى وهم الآن يعيشون الحياة بشكل طبيعي.

تجاهل "حازم" حديث طبيبه وما زال يتحدث مع عقله وكأن عقله أصبح وحوشًا برية تريد أن تسفكه دمًا، شعر بتلك الضوضاء الصاخبة بعقله ليقطعها غاضبًا وهو يصيح:

- أنا خائن!

نظر له الطبيب بدهشة فليست الدهشة في اعترافه بالخيانة بل الدهشة اقتناعه بأنه مريض ولابد الشفاء منه تابع الطبيب حديث مريضه الذي أكمله قائلا:

. أحبها، ولكنني أشعر بالاحتياج دائما لا أقول إنها لا تلبي احتياجي ولكن ما زلت أشعر به مثل ما أشعر بحريتي عندما أكون مع امرأة غيرها، لا أعلم أن كنت مريضًا أم هذا أمر طبيعي ولكن ما يؤلمني هو جلد الذات ذلك الشعور هو ما أتى بي إلى هنا.

. أتحبك؟

عدّل من وضع نظارته مبتسمًا بيأس:

. كانت تحبني ولكنها ملّت، هي ملّت ولكني ما زلت بحاجه إليها.

أمسك الطبيب بدفتره ليدون كلامه قبل أن يلقي عليه بسؤال:

. أشعرتُ بجلد الذات وأنت معها؟

ازدادت هزاته لساقه، وأمسك دبلته يحاول إخراجها وإدخالها بأصبعه عدة مرات وتكرارًا قبل أن يقول:

. نعم وكنت أصارحها حتى أهدأ، هي تعفو عني كثيرا وأنا أعدها بأنها آخر مرة ولكني أخلف بوعدي واستمر بخيانتها وعندما يهاجمني جلد الذات لا أجد وسيلة سوى الاعتراف لها فيزداد الجفاء ولكنها ملت وأنا أيضا مللت

. كيف تشعر عندما تكون مع امرأة غير زوجتك

. الحرية

أمسك الطبيب بقلمه وبدأ يكتب تلك الكلمات "ملل، احتياج، الحرية" محيطا كل منهن بدائرة

ليقاطعه المريض بتوتر متوسلا:

. أرجوك ساعدني

عاد الطبيب إلى كرسيه الجلدي ليقول بهدوء:

. جئت إلى هنا تريد الحل، لن أعطيك دواء فتتوقف خيانتك، ليس الأمر بهذه السهولة عليك بالمثابرة لتنال مرادك، لابد أن تحارب ذلك الشيطان الكامن بداخلك، يروضك بكل مرة خُنت بها وعليك الآن ترويضه.

توقفت هزات ساقه وهدئ قليلا قبل أن يبدأ بالحديث:

. ماذا علي أن أفعل؟

. أن تشعر بهذه الحرية مع زوجتك

. هي لا تحبني

. وماذا لو جعلتها تحبك مثل ما فعلت من قبل؟

. لن استطيع فهي قد ملّت

. تقصد أن انهارها بك قد انطفئ ولكن عليك إشعاله من جديد.

نظر إليه بحزن:

. ماذا علي أن أفعل أنا فعلت كل ما استطيع ولكنني يئست، حتى..

. حتى جئتُ إلى هنا حتى أعطيك الدواء لتتوقف عن الخيانة، أصحيح؟

لم يجب المريض ليُكمل خالد حديثه:.

. أنت لست بحاجة إلى أدوية كل ما عليك هو محاولتك في تحسين العلاقة، وسيطرتك على شيطانك، عيادتي مفتوحة لك إذا أحببت المجيء مرة ثانية، اتفقنا؟

أنهى حواره مع المريض الذي انصرف، وبدأ ينظر إلى ما دوّنه بتعجب بدأ في شروده وهو يحاور عقله "الخيانة " مرض معترف أنه مرض هو حرمان عاطفي ناتج من عدة أسباب ومن أهمها ما قاله "حازم" ولكن الرجال جميعهم خائنون، أجل هو آتى لشعوره بالندم ولكن هناك شيء ما ينقص اللوحة بالخيانة مثل ما هي نشوة ولكن في النهاية تؤدي إلى الملل، فلماذا لم يُمَل؟، كيف استمر بنشوته؟"

قطع شروده دخول مُساعدته تُبشره بأنه انتهى من كشف المرضى فأخذ دفتره متجهًا إلى المنزل.

***

ولج إلى منزله متثائبًا محاربًا هجمات الإرهاق، وما أن ألقى السلام عليها حتى هبت زوجته لتحتضنه مُرحبَة به قائلة:

. تأخرت اليوم حبيبي، انتظرتك كثيرا

قبل وجنتيها متجهًا للأريكة:

. آسف حبيبتي العمل شاق اليوم

نهضت وهي تقول:

. سوف آتي بالطعام

جذب يديها:

. لا أجلسي، أود الحديث معكِ

. ماذا؟

خلع حذاءه وعلى وجهه علامات الاندهاش:

. جاءني شخص بالعيادة مريض بالخيانة.

حدقت بعينيه ليُكمل:

. يشعر بالندم ويريد العلاج

رفعت حاجبيها ذهولا:

. لم ارَ رجالا تفعل ذلك في هذا الزمن، ماذا فعلت له

. تحدثت معه ولكن أنا لا أفهم، لِماذا لم يمل من عادته للخيانة كان يبرر بأن الملل والاحتياج هما من هدّا ذلك السور

. وما رأيك أنت؟

. هناك سبب ثالث علي علمه، أنا مرهق كثيرا أود النوم

. والطعام؟

وضع يده على فمه وهو يتثاءب:

. أريد النوم فقط

تنحنحت إليه وصوتها قد تغير إلى طفلة في السادسة من عمرها:

. أتخونني مثله؟

ما زال يتثاءب مجيبا لها:

. بالطبع حبيبتي

ليجد وسادة برأسه مُلقاة بغضب:

. آه، تألمت لو تعلمين

اتجه ناحيتها ممسكًا بوجنتها بابتسامته المرحة:

. لو نساء العالمين أحبوني سأحبك أنتِ دائما مليكة.

كان مراده للنوم ولكن لم يأتِ إلا بعد ساعتين من التفكير في أمر هذا المريض وجرأته وحبه لزوجته فشرد قليلا "لو الخيانة تأتي بالملل والاحتياج لكان رجال العالمين خانوا زوجاتهم، لا يوجد حب بدون الملل والاحتياج، الحرية ليست بنشوة هي فقط شعور يأتي عندما نتقيد، الرجل هيئته لن تجعل أي امرأة تقبل به كيف يتسلل إليهم، كان من الممكن أن فترة الملل والاحتياج تذهب ويعودوا إلى طبيعتهم" قطع شروده مليكه تُملس على شعره بلطف:

. بماذا تفكر؟

. لا أعرف

ما زالت تُملس ومن ثم تشد شعره بعنف:

. تفكر بها، اتخونني؟

. آه، ألم تملِ من هذا الحديث حبيبتي، أنا مللت

انتهيا من الحديث كانت ليلة طويلة عليه يمتلئ عقله بالأفكار والأسباب حتى عفا عنه عقله وجعله يذهب إلى ملاقيه حيث النوم.

استيقظ على صوت"مليكة" تشده من لحيته السوداء محاولة استيقاظه فهذه طريقتها المسلية في استيقاظها لخالد، نظر لها بغضب

ممزوجًا بما بقى من كلامها ليلة أمس.. ولكنه كالعادة لم يستطع إلا مجاراتها في مشاكساتها المرحة، تناول إفطارها حتى لا يغضبها ولكنه ما يهمه من كل هذا فنجان القهوة الذي لم تنجح في فعله ولكنه لا يريد خذلانها، اتجه للمكتب يطلب من"سارة" أن تحضر إليه المواعيد والحالات المرضية فيجد أن حازم من ضمنهم اليوم فابتسم أنه حجز ميعادا وسيأتي بدأ الكشف على المرضى وهو ما يشغله قضية حازم حتى جاء عليه الدور فيدخل وما زالت الابتسامة مغتربة عن وجنتيه، بدأ في الجلوس وعيناه تملأها نظرات فقدان الأمل عندما قال:

. لم استطع سعادتها، حاولت ولكنها حتما تبتعد، جئت لها بفستان تحضر به مناسبة صديقتها رفضت أن أذهب معها وتحججت وقررت الذهاب مع أصدقائها، تريد الهروب مني وأنا احتاجها

. لماذا هي؟

بدأ يلعب بدبلته ويخرجها ويدخلها مرارا وتكرارا، قبل أن يجيب:

. الوحيدة التي لم استطع أن املك قلبها للأبد

حدق إليه خالد باستفهام.. فاستكمل المريض حديثه مفسرًا حديثه:

. لا استطيع أن أملك مشاعرها مثل ما فعلت مع أي سيدة وجدتها

. تقصد أن تملكها؟

اعتدل بمقعده تاركًا دبلته ولمعت عيناه بنظرة بها كثير من السيطرة، تغير وجهه إلى العظمة بعد الخزي نظر إلى"خالد" بحماس ليتحدث بكلمات ملهوفة:

. أقصد سرقة مشاعرها

. ماذا؟

تجاهل سؤاله وكأنه لم يسأل فأكمل حديثه بابتسامة عارمة

. احتياجي هو السرقة، إخضاعها إليّ مثل كل شيء مادي أملكه، تصبح مشاعرها مكبلة بي لا يملكها غيري، أرى المرأة كمثل طفل صغير يرى دُميته وعنده الفضول ليملكها ثم يُمل منها، فكل سيدة رأيتها وأقمت معها علاقة كنت أسرق مشاعرها إليّ كانت توهب إليّ كل ما أريده عندما أسرقها دون أن تشعر، بعدما أحست زوجتي بأنني أريد سرقة مشاعرها بعدت عني ولا أعرف السبب، أنا أحبها ولكن إذ لم توهب إليّ مشاعرها فلمن ستوهب؟

شرد الطبيب للحظة فقطعه "حازم" بلهفته:

. اتفهمني؟

. نعم ولكن هي وهبتها لك منذ رأتك فهي زوجتك!

اعتدل في جلسته وعاد إلى حزنه:

. لا لا فهي تحتفظ بجزء خاص أريد اختلاسه

. وحينها ستجدها مثل باقي السيدات؟

غضب قليلا:

. لم تقول هذا؟، هي زوجتي، هن عاهرات

نظر الطبيب لعينيه بمكر:

. علمت، أستاذ حازم حضرتك تخون من أجل السرقة، ترى سرقة المشاعر شيء باهظ وزوجتك لم تلبي لك هذا الاحتياج فأردت أن تسرقه من السيدات في طموحك لتعويض هذا، أليس كذلك؟

ابتسم إلى الطبيب بإعجاب يجيب بلهفه:

. فهمتني، ماذا على أن أفعل الآن

مسك بدفتره يكتب ما يفهمه ليقول بوضوح:

. التحكم، بمعنى أنه عليك بسيطرتك لنفسك لشيئين أمر خيانتك والتأكد من أنك سوف تحظى بقلب زوجتك، أخشى أن أجرح مشاعرك ولكن أنت ليس بمريض الخيانة أنت مريض بالسرقة..

. جلدي لذاتي يرهقني كثيرًا

. أعلم، ولكن المحاولة هي سر النجاح، حتى تحظ بقلبها عليك بالمحاولة اتفهم؟

***

بعد طابور من المرضى المتهافتين على عيادته، وجد مساحة من الوقت فأراح "خالد" رأسه على مكتبه الخشبي ليهزمه النعاس، تدخل المُساعدة محضره فنجان القهوة تضعه برفق محاوله ألا يستيقظ جاءت لتخرج لتجد"مليكة" ابتسمت لها تقول بهدوء:

. إنه نائم، أقول له أنكِ جئتِ؟

نظرت لها بغضب لتجيب:

. لا سأدخل أنا

ثم تركتها لتدخل عليه فتجده في سبات ملست على شعره برفق قبل أن تقول:

. استيقظ فقد اشتقت إليك

فتح عينيه المليئة بالإرهاق وهو ينظر إليها وكأنه يتساءل عن مكان وجوده لتستكمل هي حديثها:

. لما لا تذهب للبيت الوقت تأخر، تنام بالمكتب ومساعدتك بالخارج؟

. أتخونني معها؟؟؟

رفع حاجبيه لينهض ويرتدي معطفه لتُكمل:

. أنت تخونني معها مثل ما أقرأ في الروايات وأشاهد الأفلام، يقع الطبيب في حب مُساعدته وتبدأ قصة حب بدون علم زوجته

قبل وجنتيها قبل أن يرد عليها بلهجة المُعتاد على تلك الحوارات:

. أنتِ على حق، سنتنزه اليوم مكافآة على خيانتي.

مسك يديها متجهًا للباب ليفتحه فجأة، فيجد سارة منصته لحديثهم من خلف الباب، صاحت مليكة بذعر:

. ماذا تفعلي أنتي؟!

توترت سارة لتقول بكلمات مرتجفة:

. كنت فقط أفتح الباب لأقول لدكتور خالد بأنني سأرحل

تدخل خالد بحزم:

. سنتحاسب بوقت آخر، علينا بالذهاب مليكة

تركت يده بقوة وبصوت غاضب تلقي حديثها:

. لا يا خالد.. حسابها هو الآن عليها الرحيل للأبد ولا تأتي إلى هنا

. ولكني احتاجها مليكة، لم أجد مساعدة بوقت قصير والعمل كثير!!

نظرت بغضب له:

. قلت لك أنها ستترك العمل، كيف لك أن تأمن لامرأة تتعمد على سماعنا من خلف الباب

بات عليه الغضب نظر لمليكة بنظرات قاسية في تلك اللحظة التي يقول بها المساعدة:

. أذهبي الآن سارة وعملك بالغد أما ما فعلتيه ستلقى جزاءه

في ذلك الوقت كانت سارة تبكي بحرقة تحاول الدفاع عن نفسها ولكن بلا جدوى محاولة استعطاف مليكة ولكن مليكة في ذلك الوقت

كان شرارة غضب تريد عود ثقاب لتحرقهم جميعا، نظرت له مليكة بتحد:

. لو بقيت سارة سأرحل أنا، هذا آخر حديثي وأفعل ما شئت

أنهت جملتها وتوجهت للخروج فأشار خالد لسارة بأن تذهب الآن ثم ذهب ليلحق مليكة محاولا توقيفها بالطريق:

. مليكة، كيف عليكِ أن تقسي علي هكذا، أنتِ تعلمين أنني أحبك ولم استطع خيانتك، ولكن احتاجها بالعمل.

. جعلتها تنتصر عملك هو المهم.. أما زوجتك فلا؟!

تركته مليكة لتوقف وسيلة مواصلات وتقول متحكمة بصوتها:

. سأذهب لأمي، لا تحاول الاتصال بي.

ولج المنزل وكأن حزنه هو من أضاء البيت بسواد، جلس متنهدًا ووجهه مطبوع بالحزن يتفقد أنحاء البيت متذكرًا غيرتها عليه، سخافتها التي يحبها، لم يفعل شيئا سوى النوم الذي أتاه بعد محاولات عديدة، ليهزمه النعاس بمساعدة الحزن الدفين بقلبه.

***

استيقظ من النوم وغادر فراشه، ولكن الحزن لم يغادره.. توجه إلى عيادته عاقدًا حاجبيه ليجد مساعدته "سارة" وعينيها تمتلئ بكثرة الدموع لتقول وهي ترتجف:

. آسفة

لم ينظر إليها وبدأ يتحدث بنبرة بها بعض الحزم:

. فعلتك هذه، جعلتني أخسر زوجتي، لم أريد منك أن تبرري فعلتك، أرسلي لي كشوفات اليوم وأرسليلي أول مريض

تنحنحت تنظر للأرض لتقول:

. ولكني أحبك.

سقط ذلك الخبر كالمطرقة على رأسه، ففقد القدرة على الكلام واكتفى بالنظر إليها مذهولاً.. قبل أن يبدأ بتمالك نفسه ويتساءل: ماذا؟!

. منذ عملت معك وأنت لم تذهب عن عقلي للحظة، أعلم أنك تحبها، ولكنها مشاعر لا ذنب لنا فيها توهب لأجل شخص ولا نستطيع العيش إلا بقربه مننا

نظر لدبلته المطبوعة عليها اسم زوجته نظر إليها مندهشًا بكلامها المماثل لكلام ذلك المريض قبل أن يستعيد زمام ثقته المعهودة بنفسه ليتحدث بهدوء:

. أعلم ما تشعري به ولكنني لم استطع خيانتها، آسف لمشاعرك ولكن تلك المشاعر لا تخصني.

نظرت بحرقة لعينيه لتقول:

. أستاذة مليكة لديها الحق كان على ألا آتي مرة أخرى

همت بالخروج ليحاول خالد أن يوقفها فمسك بيدها رغما عنها قائلا:

. لو وددت أن تذهبي فأذهبي، ولكن انتظري حتى أجد شخصا بدلا منك.

دهشت عندما أمسك يدها، وبرغم رفضه لها ولكنها شعرت بقلبها يحلق في الهواء ابتسمت بالقبول وما زالت يده محتضنه يدها في اللحظة التي فُتح بها الباب وانطلق صوت قائلاً:

أين المساع.....

لينظر لهما فتشد يدها وتذهب للخارج مسرعة ليتابع "حازم" الكلام:

. آسف أن جئت في وقت غير مسموح به ولكني احتاجك ولم أجدها بالخارج

توتر الطبيب محاولا ترتيب حديثه:

. لا عليك أستاذ حازم، أهذا ميعادك؟

. أجل

***

بعد مرور ثلاثة أيام

يُزين هذه الكافتيريا صوت فيروز والحائط يُزينه موج البحر وكأن لطف العالم يتلخص بهذا المكان، تجلس سيده تداعب خصلات شعرها، مُمسكة بفنجان القهوة شاردة مع صوت الأغنية ليقطع شرودها صوت النادل الأجش:

. من الممكن أن تجلسي بالمنضدة المقابلة لأن تلك المنضدة بالفعل محجوزة لشخص يأت كل يوم في هذا الميعاد؟

كانت نظرات الغضب تفترس وجهها، أجابته وصوتها في أواخر غيظ:

. كيف لك أن تعكر مزاجي، لن أقوم، توجد أماكن أخرى اذهب الآن وإلا سأجعل مديرك يلقيك بالخارج.

كانت ستُكمل ولكن قاطعها صوته بهدوء محاولا تهدئة الموقف:

. أريدك أن تهدأي قليلا، ماذا حدث يا "شريف"

. أقول لها بأن حضرتك تحجز هذه الطاولة ولكنها ترفض القيام.

ابتسم قليلا ثم قال:

. ليس مهم بالمرة سأجلس بأي مكان، أنا أسف لك سيدتي

هدأت قليلا ثم ابتسمت بنظرات انتصار للنادل:

. لا عليك فهذا ليس خطأك

.. تسمحي لي بالجلوس معكِ؟

. بالتأكيد تفضل

. هذا مكانك المفضل؟

ابتسم رغما عن هيئته التي تدل على حزنه الشديد:

. أجل، انعزل هنا عن العالم بأكمله، احتسي فنجان القهوة وأخرج لأعود بشخصيتي بيتي.. حتى لا تختلط حياتي العملية بالمنزل.

. جيد، أنا آسفة ولكن هذه الطاولة الوحيدة التي أعجبتني مكانها متميز

. لا عليك شيء، فأنا مثلك تماما

. اسمي سجدة وأنت؟

. خالد، أحب هذا الاسم سجدة

ابتسمت وقد لمعت عيناها:

. شكرا لك، امتزوج؟

. نعم

ارتشفت سجده رشفة من قهوتها لتسأل باستنكار:

. عن حب؟

ابتسم ثم أخذ فنجانه من النادل ليجيب:

بالطبع، هي نعمتي التي أهداها إليّ الله, ولكنها ما زالت طفلة نتشاجر لأسباب بسيطة

ضحكت سجده قائلة:

. نحن السيدات عقولنا صغيرة ولكن عليك كسبها بأقل الطرق

. أعلم، ولكن تلك المرة تركت المنزل.

قالت سجده مستنكرة:

. ماذا حدث؟

تردد قليلا ليقول:

. قارنت نفسها بمُساعدتي، وتلك المقارنة غير صائبة فأنا احتاج مُساعدتي لكثرة العمل واحتاج زوجتي

. كان من الممكن أن تصنع خدعة، وترضي الطرفين

ما زال الحزن يسكن وجهه عندما قال:

. لا أعرف وقتها بماذا كنت أفعل

. أكل الحزن الغامر عينيك؟

نظر إليها والعين تدمع وكأن الفراق سم يقتلنا بوقتها، يقتل روحنا، يقتل عيوننا، دموعنا وقتها تفرز مادة تلهب بوجهنا وكأن الفراق أشبه بالنار

. هي من عادت إليّ الحياة مرة أخرى وتريد الآن أن تتركني وترحل، أيعقل هذا!

ضحكت سجدة ساخرة من نفسها وليس منه عندما قالت:

. كنت أود أن يحبني أحد مثلك، أمنيتي في الحياة أن أجد تلك الدموع التي تهاب الخروج وعندما تراني تُسرع إلي وتحتضنني، تحتضن خوفي، تشعرني بالأمان، أشفق أن زوجتك تركت الأمان ورحلت

. حقها سجده، أنا الخاطئ

تنهدت قبل أن تقول ودموعها تهبط منها كقطة ابتلعت أطفالها لتحميهم:

. أنت لست بخاطئ، نحن من نسخط على نعمنا، حتى أنا.. أسخط على زوجي برغم ما يقدم لي، كُلنا بكفة الظلم فالعدل أصبح العدو الحقيقي لنا.

تأثر بكلامها لينظر إلى عينيها ليجد شلال نيران تريد أن يطفئها أحدهم ليمسك بمنديل معطيًا لها قائلا:

. لا عليك بالبكاء، لا يفيد، يسقمنا فقط، سيدة جميلة مثلك السقم لها مرفوض، الله خلق النسيان لنكمل حياتنا، فقط أنسي، أتعلمين شعرك لطيف للغاية، ينقلنا إلى الهدوء، هيئتك تُنسب إلى ذلك المكان

داعبت خصلاتها وهي تبتسم تلك الابتسامة الساحرة لتقول:

. شكرًا دكتور خالد.

أنهى عمله ولا زال كلام تلك الفاتنة يتردد بأذنيه، هل من الممكن ألا يكون أخطأ بحق مليكة؟!.. لا.. ماذا لو كان هو بمحلها أكان سيقبل التبريرات؟.. ولكنها حتى لم تعطه فرصة للتبرير.. ظلت تلك الأسئلة تتصارع برأسه حتى أغمض عينيه مستسلمًا للنوم.

***

لم يحدث جديد كان شارد طول اليوم هلاوسه تقتل عقله، جنونه بدا الظهور عليه في تصرفاته، كان ينتهي من عمله للبيت لا يأكل سوى القليل ويكتفي بفنجان القهوة الذي يصنعه بنفسه فحتى الكافتيريا التي كان يهدأ بها لم يعد يذهب إليها فآخر مرة وجد سجدة تحدث معها، حاولت أن تنسيه بعض همومه ولكنها جاءت بسيرة مليكة فاختنق ورحل ولم يذهب بعد تهربا من سؤالها، أما مليكة فحاول في أن تعود ولكنها في كل مرة تقتله بالرفض فقرر أن يتركها لفترة تهدأ هي وهو أما سارة فما

زالت موجودة تنظر إليه بنظرات الحرمان والإشفاق على ما بدا عليه من حزن تحاول أن تخفف عنه ولكنه لا يقبل منها كلمة حتى لا تهيأ لنفسها أنه بدأ يحبها، تراقبه وعيناها تحتضنه كلما نظرت إليه ونظراته تخترق عينيها لتذهب روحها فتقتلها بسكين تلم، لا تريد أذيته ولا حتى بأن تجعله ينفصل فقط قد سلب منها مشاعرها، أما صديقنا المريض فيحاول في استرجاع حب زوجته، فتارة ينجح وتارة يتحطم فشله، الشك ملأ قلبه، أتخونني الآن؟، لم يحاول مواجهتها هو نفسه لا يعلم لماذا، من الممكن لأنه كان يخونها أو كان ينتظرها لتفصح هي مثلما كان يفعل.

يستيقظ من نومه في هذا الروتين الممل، والتحدث مع مرضاه ولو تعلمون فهو من يستحق أن يجد من يسمعه ما بين المريض والآخر كان يشرد للحظات وكأنه الفاصل الوحيد عن عالم الواقع بدأ بالاعتدال مع اسم المريض التالي لينظر في دفتره ويقول بصدر رحب محاولا ألا يبين شيئا مثلما يفعل مع كل مريض:

. أهلا بحضرتك، ما اسمك؟

. سجدة

ترك دفتره لينظر بعينيه لها مندهشا:

. سجده!!، ماذا تفعلين هنا؟؟

. مريضة؟

هدأ قليلا فقال بتوتر:

. أنا آسف، فلم يأتِ بي احتمال أن أجدك على هذا المقعد!

. لِم لا تأتي إلى الكافتيريا؟

. العمل يأخذ كل وقتي فلم أملك الوقت الكافي حتى أتي

نهضت من مقعدها بخفة متجهة له تسحبه:

. لا أحب جلسة المكاتب ولا العيادات، ماذا لو ذهبنا لنحتسي كوب القهوة بالكافتيريا؟

***

. وجع العالم يوجد بأعينك، ما بك؟

هكذا تساءلت "سجدة" بمجرد جلوسها معه، فتوتر قليلًا قبل أن يجيب:

. لا شيء، أنا بخير

نظر لها بتساؤل واندهاش:

. من أعطاكِ عنوان عيادتي

أمسكت فنجان القهوة بابتسامة:

. سألت النادل الذي كان يتشاجر معي

ضحك ساخرا:

. لو كنت مكانه لكنت جعلتك تذهبين في متاهة أبدية

علت ضحكاتها ووضعت فنجان القهوة مُمسكة بمنديل:

. قد حدث كثير في هذا الشهر دكتور

. أنتِ أيضا تناديني دكتور، تعالي إلى هنا بأي مرض أنتِ مريضة، أكانت خدعة؟

ضحكت ولكنها في تلك المرة أرادت جذبه وكأنها ماهرة في وقوع الرجال بضحكتها:

. أود القول إنه نعم

نظرت لعينيه بعينيها التي كانت مُسكنا له في تلك اللحظة، تُزينها بمستحضرات التجميل تفتنه بأحمر الشفاه وكأنها أرادت أن يهتز من مكانه لتقول:

. أشتقت إليك

نظر لها بذهول ينظر لشفتيها وهي ما زالت تتحدث:

. هذا الشهر كان بمثابة سنة طبيبي

مدت يديها لتحتضن يداها وشَعرِها يطير لأعينها فتضحك لتظهر تلك الغمازة التي جعلته يفتن بها

. ألم تشتاق إليّ!

نظر خالد ناحية الباب ليجدها "مليكة" تنظر إليه تشاهد خيانته، وقد ذبلت عيناها من كثرة البكاء فسحب يده من يد سجدة متجه ناحيتها قائلا بشوق وتوتر:

. مليكة!!!

نظرت له وعيناها تمتلئ بالدموع مجددًا تقول بكلمات مرتجفة:

. أتخونني مع هذه!، ورقة طلاقي تصل إليّ عند والدتي

تركتهم ودموعها كانت ملجأها الوحيد ظلت تهرول مسرعة لم تر من كثرة الدموع في تلك اللحظة التي نظر بها خالد لسجدة محتقرا لها وهي في قمة سعادتها فذهب ليلحق بمليكة ينادي عليها وهي ما زالت تهرول، ودموعها حجبت الرؤية تسير بسرعة كبيرة هو يسير محاولا اللحاق بها يجري عليها مسرعًا بصوتٍ عال:

. ملييييييكة

***

سار كالمجنون بالطرقات.. يبكي تارة ويغضب تارة.. لمَ دائمًا لا تعطيه فرصة للشرح والتبرير.. لمَ تنصب نفسها حكمًا وهي الخصم؟.. وصل إلى سيارته فارتادها ليكمل نوبة غضبه بداخلها، خبط يده بالمقعد وعيناه تمتلئ بشرارة قبل أن يمسك هاتفه ليحادث سارة ويفصلها فورا، ألقى

بهاتفه بضيق.. قبل أن يهتز من جديد ليجد اسم سجدة على الهاتف، ينظر لاسمها بغضب يترك هاتفه، لا يعلم لماذا لا يريد التوجه للعيادة الآن، سجدة ما زالت تهاتفه ولكنه لا يهتم ظل بالسيارة يشعر بغضب وكأنه وحش يريد أن يلتهم المارة، يضع يده خلف رأسه ويحدث عقله بغضب:

. تراني خائنا؟، لقد صنت عهدي معها، وفي النهاية تُدينني بالخيانة، أنا لم أخُنها

ركز قليلا محركًا شفتيه:

. تدينني بالخيانة، وأنا لم أخُنها، وإذا فعلت أي شيء لم تصدق، فماذا لو خنت فأنا في الواقع مُدان فاستمتع الآن، وفي ذات الوقت أحاول فهم حازم وشعوره فمن الممكن أن أساعده!

ما زال الهاتف يرن فيمسك به ليجدها فيفتح دون أن يسمعها قائلا:

. أريدك

ضحكت ساخرة:

. الآن؟

. أجل، أين أنتِ؟

. بالبيت

. متى يأت زوجك؟

. لن يأت اليوم فالعمل كثير

. أنا قادم إليكِ، ما العنوان؟

دقائق قليلة فصلته عن الوصول لمنزلها طرق الباب ثلاث طرقات بقبضة يده كما اتفقت معه تماما، ففتحت له الباب وهي تنظر بأعين

مليئة بالغنج مرتدية قميص نوم وردي اللون يلائم بشرتها الخمرية وتقول بابتسامة بها كثير من المكر:

. جئت بالموعد، تفضل

نظر لها دون اهتمام وبدأ بتمرير عينيه بين جنبات شقتها الفارهة، لاحظت هي ذلك فتحدثت وهي تمسك رباطة عنقه قائلة:

يبدو أن المنزل قد أعجبك كثيراً، ماذا لو رأيت غرفة نومي؟!

ابتسم وشرارة الشهوة تتطاير من عينيه.. قبل أن يقول:

. فلنجرب

ساروا باتجاه غرفة النوم.. ولكنه توقف فجأة فتساءلت:

. ما بك؟

بدأ يخلع دبلته يقول بسخرية:

. سأتركها هنا فلا أريد أن أجعلها تشاهد ما سيحدث

***

. لقد أخبرتك بانتهاء عملك معي وهذا نهاية قولي، . فقدت زوجتي بسببك، وفي النهاية تحدثها حتى تأتي وتعتقد أنني أخونها، بهذه الكلمات صاح "خالد" في وجه مساعدته بعدما وجدها بالعيادة، سادت على وجهها علامات الارتباك قبل أن يخرج صوتها المتهدج وتتحدث قائلة:

. صدقني.. هي فقط هاتفتك بهاتف العيادة فردتت عليها وقلت إنك بالكافتيريا

. كاذبة، هي قالت حديث آخر.. أنتي تعمدتي إفساد علاقتي بها.

امتلأت عيناها بالبكاء وتقول مرتجفة:

. صدقني سيدي لم أفعل شيئا

بدأت تبكي وترتجف تنزل من أعينها قطرات تقتل روحها في نفس اللحظة التي دخلت بها مليكة للمكتب نظرت لها فزفرت بخالد:

. لما تبكي هكذا، ماذا فعلت بها؟؟

نظر لها مندهشا ليقول:

. هي السبب لانفصالنا، لا أريد عملها

. لا وأنا أريدها تعمل

. لماذا جئتِ؟

نظرت لسارة مشيرة لها بالخروج واتجهت لتجلس على المقعد:

. شعرت أنني مذنبة وأنك صادق، عندما تحدثت مع أمي، قالت أن التمس لك العذر وأن حبنا لم نهدمه بتلك الطريقة، أأنت صادق خالد؟

. صادق مليكة صادق

اتجه ناحيتها بنظرات شوق وهو يضمها بين ضلوعه:

. اشتقت إليكِ كثيرًا مليكة، الروح كانت مشتاقة لعيونك.

مرت حوالي نصف ساعة شعر فيها أخيرًا بعودة روحه لجسده، شعر فيها بالألفة بعدما تركته غريبا، تبادلا الضحكات والأحاديث، بل وأمسك يدها لتجذب لحيته وكأنه اشتاق لمشاكستها له، قطع أحاديثهما صوت ضجيج بالخارج ينم عن محاولة سارة منع أحدهم من الدخول، ولكن الباب يُفتح لتدخل تلك الفاتنة مرتدية فستان قصير يبرز مفاتنها تقف أمامهما قائلة:

. نسيت تلك الدبلة بالأمس حبيبي

وضعتها على المكتب ثم تتجه ناحية الباب للخروج فتقف قائلة:

. لو تعلم ليلة أمس كانت ممتعة بالفعل، لم أحظ بتلك السعادة من وقتها

في تلك اللحظة قد جمدت دموع مليكة من صدمتها، تركتهم سجده وهو يقف أمامها لم يستطع أن يبرر، ظلت واقفة تنظر له تعاتبه تحرك رأسها يمينا ويسارا بالرفض لتقول: . أكرهك

ثم تتركه مهرولة ليقع على الأرض حزنًا، يعلو صوته بالأسف، حزنه قد طبع عليه، كلمات الندم الذي يرددها، مر عليه شريط مليكة ومر عليه أيضا خيانته لها بالكافتيريا ليكتمل المشهد الذي قد حطمه بالكامل.. .لاعنًا الخيانة والخائنين.. لاعنًا ذالك المريض الذي فتح أبواب الجحيم على مصراعيها أمام وجهه.. لاعنًا مهنته التي أصابته يومًا بالهوس والآخر بالهلاوس وحولته اليوم إلى خائن.. قاوم دموعه ممسكًا بدفتره المفتوح على ورقة بيضاء تحمل عنوان الخيانة وبدأ بالكتابة:

. الخيانة صدقًا سرقة فجميعنا سارقون، وكلنا شياطين الطيب منّا يتجمل على شكل ملاك ولكن طباعه نابعة من شيطان النفس، الخيانة تقترب منا ومن يتبعها يصل للجحيم، كيف لسرقة مشاعر أن تؤذينا، علمت أن الكلبتومانيا سرطان المشاعر عندما مزقت روحنا وما زالت تمزق هذه الروح الضعيفة.

أغلق دفتره وغادر عيادته والدموع المنهمرة تأبى التوقف، ليترك سارة وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة النصر لتمسك هاتفها وتبدأ بالحديث قائلة:

. أحسنتي صديقتي.. الآن لن يرى غيري أمام ناظريه.. هذا حقي وعليّ امتلاكه بأي طريقة سأسلبه مشاعره كما سلبني إياها.. شكرًا سجدة.. واعتقد أن ليلة الأمس كانت كفيلة برد الجميل إليكِ.

هنا هُدنة لالتقاط الأنفاس، مرحبًا بكم بأرض الفانتازيا والغموض، أربطوا الأحزمة واستعدوا لتلك الرحلة..

ما رأيك أن تحدثني عن عشرين عامًا من الفراغ القابع أنت بداخله؟!، هل من الممكن أن تصف لي تجربتك (حينما فقدت الشعور)؟، هذا هو حال كريم.. فقد رفض الماضي وحاول الهروب من مخالبه، فاصطدم بعالم موازٍ لا يعلم عنه شيئا.. ولا ناقة له ولا جمل به.

أما وائل فكان على النقيض.. لم يهرب من الماضي.. بل لا يعلم شيئا عنه.. ولكنه يحاول الهروب من الغد.. يحاول أن يكتب مصيره بدلًا من ذلك (الحبر الأسود)